مـادة السيــرة

شرح : قتيبة الأغلبي **برنـامج تقريب علوم الشريعة**

مقال (1)

مقدمـة

قصّ الله سبحانه القصص في القرآن لحكم عديدة منها قوله تعالى " وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" فقصص الأنبياء كانت تسلية لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن العاقبة للمتقين وتثبيتا له.

ومن هذا الباب نبدأ تدارس السيرة متوكلين على الله سبحانه ليطّلع المسلم على قصصٍ من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستخلص منها العبر والدروس كتسلية لقلوب المؤمنين بأن الله ناصر دينه وتبصرة لهم بكلفة نصرة هذا الدين وتحقيقا لتمام الأسوة الحسنة المأمور باتباعها.

1- أهمية السـيرة

قال ابن حزم: " فإن سيرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقا ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى. "

وعرف السلف قدرها فدوّنوها قبل أي علم بعد القرآن فكانوا يتواصون بتعلمها وتعليمها لأبنائهم، حتى **قال علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ يقول : " كنا نُعلَّم مغازي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم السورة من القرآن "**. وكان الزهري يقول : " علم المغازي والسرايا علم الدنيا والآخرة."

2- نسـب سـيد ولد آدم صلى الله عليه وسـلم

قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم."

وهذا النسب هو أوسط أنساب العرب وأشرفها على الإطلاق. فاختار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بيتًا شريفًا حتى لا يبقى لشانئ عذر. فهو أبو القاسم محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب –

شيبة الحمد – بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهربن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

3- صفته الخَلقيّة.

كان صلى الله عليه وسلم حسن الوجه مشرق المطلع، ضخم الرأس، شديد سواد العين شديد وشديد بياضه، أشفارها طويلة وحاجباه طويلان مقوّسان قريبان في غير اقتران ، طويل العنق، رَبْعة من الرجال لا قصير ولا طويل، بعيد ما بين المنكبين، شعره لا جعد (**ملتوٍ**) ولا سبط (**مسترسل**) يصل إلى شحمة أذنيه. قوي الصوت، إذا تكلّم أفصح وأبان غير لاغٍ. بأبي هو وأمّي .

مقال (2)

4- نشأته صلى الله عليه وسلم :

أ- مولده ﷺ :

ولد ﷺ على الصحيح عام الفيل. وأمّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.

تسمي العرب ذلك العام بعام الفيل لأن فيه هجم أبرهة على الكعبة لهدهما بجيش مع فيل ضخم.

وذلك أنّ النجاشي ملك الحبشة استعمل أبرهة على اليمن؛ فبنى كنيسة بصنعاء وأراد صرف الناس عن الكعبة إليها فأرسل يطلب فيل النجاشي ليسير إلى الكعبة.

حتى وصل إلى الطائف فدانوا له بالطاعة وأخرجوا معه دليلًا يُسمّى أبا رغال –بقي اسمه مضرب الأمثال في الخيانة- حتى وصل مشارف الحرم وبدأ في الإغارة على أموال أهلها ومن بينها إبلا لعبد المطلب. فخرج إليه فلما رآه أكبره وهابه حتى إذا طلب إبله سقط من نظره وقال "لقد زهدت فيك" "جئت إلى بيت هو دين آبائك وشرفكم لأهدمه فلم تكلمني فيه وكلمتني في بعير؟" فردّ عبد المطلب ردّه الشهير: "أنا ربّ الإبل وللبيت رب يمنعه منك".

فرد إليه إبله وحشد جيشه لدخول مكة فبرك الفيل وأبى الحراك تجاه الكعبة ثم جاءتهم آية من آيات الله: طيور تحمل حجرات حتى إذا اعتلت القوم ألقتها عليهم فما أصابت أحدًا إلا هلك.

ب- يُتمه ﷺ :

نشأ ﷺ يتيمًا إذ مات أبوه قبل ولادته فكفله جدّه عبد المطلب وماتت أمّه بمكانٍ يُقال له الأبواء –بين مكة والمدينة- وعمره ستة أعوام فرعته أم أيمن وهي أحد موالي أبيه عبد الله. ولم يلبث عبد المطلب الا سنتين بعد كفالته ومات فكفله أخ أبيه الشقيق –عمه- أبو طالب الذي لم يألُ جهدًا في منعه وحمايته والقيام بشؤونه حتى شبّ صلى الله عليه وسلم.

ج- رضاعته ﷺ :

كان من عادة العرب أن يسترضعوا لأولادهم عند الأعراب ليشب الفتى قوي الجسد فصيح اللسان فالتمس جده مرضعة فكانت حليمة السعدية مرضعته الثانية بعد ثوبية مولاة أبي لهب التي أرضعته أيامًا.

مكث ﷺ عندها أربعة أعوام حصلت له خلالها حادثة شق الصدر التي رواها مسلم من حديث أنس رضي الله عنه. **"أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه -ضمه- ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره -**

مرضعته- ـ فقالوا : إن محمداً قد قُتِل ، فاستقبلوه وهو منتقع -متغير- اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره".

ولم يبق بعد الحادثة طويلا حتى عاد إلى أمه طفلا قويًا مميّزًا عرف ذلك كل من رآه.

اخوته من الرضاعة: عمه حمزة بن عبد المطلب فارس الإسلام وأبو سفيان سيد قريش قبل الفتح.

د- طفولته ﷺ :

حظي رسول ﷺ بمكانة عند جدّه عبد المطلب لم تكن لأولاده ثم لما كفله عمه أبو طالب كان رحيمًا به لا يبعده عنه ولا يغفل عنه. فتشرّب ﷺ من جدّه وعمه أحسن الأخلاق وأكرمها ولم تجد قريش فيه عيبا تعيّره به بعد ذلك حتى في طفولته وهذا من تمام حفظ الله لرسوله ﷺ .

هـ- شبابه ﷺ :

شبّ ﷺ سيدًا شريفًا عرفه أهل مكة بالصدق والأمانة وشهدوا له بالطهر والرفعة عن كل خلق معيبٍ.

وكان ﷺ فارسًا من فوارس قريش إذ شهد في عكاظ مع قومه حرب الفجار التي كانت بين كنانة ومنهم قريش وقيس.

وشهد أيضا حلف الفضول في دار ابن جدعان مما يدلّ على أنه كان ذا رأيٍ مُقدّما في قريش حتى أنهم رضوه حكما لما كثر خلافهم في من ينال شرف وضع الحجر الأسود فكان الحل النبوي الحكيم أن يوضع الحجر على رداء ويمسك كل سيد منهم طرفًا ويرفعونه ثم وضعه بيده الشريفة في مكانه. فأبى الله إلا أن يضع الحجر من يرضاه ونال الشرف برضاء قريش. فتأمل تدبيره سبحانه.

مقال (3)

5- دنياه قبل البعثة:

أ- عمله:

عمل ﷺ في بادئ الأمر في رعاية الأغنام كما صح ذلك في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : قال ﷺ **"ما بعث اللهُ نبيًّا إلا رعى الغنمَ . فقال أصحابُه : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهلِ مكةَ".**

وهذه من حكم الله سبحانه لنبيّه إذ أن عمل الفرد يسبغ عليه في طباعه **قال صلى الله عليه وسلم "الفخر والخُيَلاء في أصحاب الإبل، والسَّكينة والوَقَار في أهل الغنم" متفق عليه.**

ثم لما شبّ عمل في التجارة وقيل أنه خرج في أوّل أمره مع أبي طالب في تجارة – ولم يثبت في هذا حديث- ثم خرج في تجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ب- زواجه

تزوّج ﷺ من خديجة بنت خويلد بن أسد رضي الله عنها وأنجبت له القاسم وعبد الله وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية.

كانت خديجة شريفة النسب في قومها ذات مالٍ. وهي أوّل زوجة له ﷺ ولم يتزوّج عليها حتى ماتت. وكان يقول عنها "رزقتُ حبها".

ج- دينه

صان النبي ﷺ – بتوفيق الله له- نفسه عن جاهلية قومه فلم يكن يهريق مروءته على أعتاب صنم ولا يأكل مما ذُبح عليها. ولا كان يدخل في بدعة قريش "**الحمس**" التي ابتدعتها في الحج من امتناعهم عن الوقوف بعرفة. قال ابن حجر "كان مصونا عما يستقبح قبل البعثة وبعدها".

ثم بازدياد الفجوة الإيمانية بينه وبين واقعه كان النبي ﷺ يتحنّث بغار حراء وهي على الأغلب من بقايا الحنيفية الإبراهيمية التي كان عليها نفر من العرب.

وهكذا كان تدبير رب العالمين لرسوله الأمين لحمل مشكاة الرحمة. فاصطفاه لنفسه وأيّده بزوجه وصاحبه الصدّيق.

مقال (4)

6- النبوة:

أ- البشائر:

فارق رسول الله ﷺ مجتمعه بعقله ثم ببدنه فحُبّبت إليه الخلوة فكان يخرج للتحنث في غار حراء وبدأت البشارات تلوح فكان يسلّم عليه الحجر في خروجه ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين عاما بدأت مقدّمات النبوة تتجلى.

قالت عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها".

فكانت الخلوة وتواتر الرؤى الصادقة أول الغيث ودامت هذه الفترة ستة أشهر وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

ب- بدء الوحي:

لأوّل مرة منذ مئات السنين وبعد ان اندرست آثار النبوة وعمّ الأرض ظلام الكفر يأمر رب العزة جبريل أن ينزل بالوحي فجأة على رسول الله ﷺ وهو بالغار فكانت أول لحظة أشرقت فيها مشكاة النبوة منذ زمن عيسى عليه السلام.

قالت عائشة رضي الله عنها: "فجاءه الملك فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ..."

فقال له مرتين" اقرأ" فردّ عليه ﷺ "لا أحسن القراءة" ثم في الثالثة تلا عليه أوّل ما نزل من القرآن الخمس آيات الأولى من سورة العلق.

فكان الموقف مفاجئًا جدا وكانت الآيات ثقيلة لما فيها من الحق. إنها كلمات رجف لها فؤاد أفصح الناس. قالت عائشة في تتمة الحديث السابق: **"فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ".**

ج- لا يخزيك الله أبدا:

قالت عائشة رضي الله عنها: "فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ لِخَدِيجَةَ - وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ -: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ".

فعاد ﷺ خائفا فطمأنته خديجة بقلب تلك المرأة التي اصطفاها الله لصحبة نبيه في سنين الشدة ولتشد أزره فأقسمت قسم الواثق بالله "والله لا يخزيك الله أبدًا".

د- ليتني كنت جذعا:

ثم رأت أن يذهبا إلى ورقة بن نوفل وكان نصرانيا عالما بالكتاب.

"فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَت ورقة بن نَوْفَل بن أَسد بن عبد الْعُزَّى ابْن عَم خَدِيجَة. وَكَانَ امْرَءًا قد تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ. وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ. فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا بْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ ينزل عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا، إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أَوَ مخرجى هُمْ؟ ! " فَقَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ".

علم ورقة أن النبي ﷺ نبي آخر الزمان الذي بشرت به التوراة والإنجيل من قبل وهذا راجع لعلمه بالكتب. وفقِهَ أنّ سبيله ﷺ وسلّم سيكون شاقاً؛ إنها الحرب، إذ سيقاتله الكفار ويقاتلهم؛ - هذا وهو لم يقرأ الأنفال والتوبة كما فعل مرجفو زماننا-.

بل وعزم على نصرته وتمنّى أن لو كان شابا قويا حين تستعر حرب الحق والباطل. فأدرك حتمية الصراع وفهم سبيل نصرة الحق. وكلّ هذا بكتب من قبلنا.

فأين أنت أيها الشاب الذي يتلو الكتاب ويقرأ السيرة مِن هذه الحرب وقد أحرقت شراراتها كم قميصك؟.

*المنشور كله عن حديث عائشة الذي رواه البخاري وقد اقتطعت منه في كل مرة الشاهد.

مقال (4)

7- القاعدة الصلبة للدين.

فتر الوحي مدة اختُلِفَ فيها ثم جاء جبريل مرة أخرى بالوحي؛ فأنزل الله **سبحانه "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربّك فاصبر".** فكان الأمر بالبلاغ والنذارة. فقام ﷺ ولم يفتر حتى جاءه اليقين.

فكان أوّل من أسلم مُطلقًا خديجة ثم علي وزيد بن حارثة. ثم أبو بكر صديق النبي ﷺ قبل البعثة فآمن ولم يتلكّأ ثم انطلق داعية إلى الله فأسلم على يده في اول الأمر عثمان بن عفّان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. ثم في مرحلة لاحقة أسلم أبو عبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون والأرقم بن أبي الأرقم وأبو سلمة بن عبد الأسد.

وتلاهم عبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وخبّاب بن الأرتّ وغيرهم- رضي الله عنهم-. وكل هؤلاء من قريش بمختلف بطونها. فلم تبق عشيرة من قريش إلا وقد دخلها الإسلام.

وآخرون لم يكونوا من قريش فعبد الله بن مسعود من هذيل، وعمار بن ياسر من عنس من مذجح، والطفيل بن عمرو من دوس، وعمرو بن عبسة من سليم، وأبو ذر من غفار.

ولم يكونوا من السادة خُلّصًا ولا من المستضعفين بل قال عمار بن ياسر: رأيت رسول الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد –عبيد- وامرأتان وأبو بكر. والعبيد: بلال بن رباح، وزيد بن حارثة، وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، أبو فكيهة مولى صفوان بن أمية، وشقران مولى النبي - ﷺ-.

ثم توسّعت القاعدة شيئًا فشيئًا ببطءٍ وحرصٍ من رسول الله ﷺ فالدين الناشئ يحتاج حكمة؛ ومن أحكم من رسول الله ﷺ. فلم يعرض الإسلام على عمه أبي لهب واستبشر باسلام ابن الزبير وهو في الخامسة عشر من عمره. ولم يبدأ بعمه حمزة فارس قريش بل بدأ بعبد الله بن مسعود راعي الغنم دقيق الساق والعظم.

فلا غرابة إذن أن يكون أوّل من دعاه من خارج أهل بيته كان أبا بكر فقد كان يعلم أن خيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا. لكن العجب من فقه أبي بكر الذي أتى بخمسة رجالٍ من العشرة المبشّرين بالجنة وهو سادسهم.

إنها النخبة التي سيقوم عليها الدين. تلك التي اصطفاها الله لتكون أوّل من ينشرح صدره بالإسلام. فقد كان القاسم الذي جمعهم أنهم كانوا لم يكونوا جزءًا من ذلك النظام الجاهلي.

قال أبو ذر: **(كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر).** وقال عمرو بن عبسة: **(لقد رأيتني وأنا ربع الإِسلام).** رغم أنهما ليسا كذلك على الصحيح. وهذا مظهر آخر من حكمة رسول الله ﷺ في سرية الدعوة فكان لا يذكر أسماء أتباعه حتى لإخوانهم من المسلمين حتى لا يصيبهم أذى لدرجة أن تهيأ لكل من أبي ذر وعمرو بن عبسة أنه رابع ثلاثة.

فتأمّل...

مقال (6)

8- وربّك فكبّر

نزل مطلع سورة المدثّر بالأمر بالدعوة فقال سبحانه **"يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربّك فاصبر".**
قم يا رائد القوم إلى طريق الله وابتغِ صراطه المستقيم، لتنذر عن الله أنه أحدٌ لا شريك له سبحانه.
قم أيها النذير فكبّر ربّك في قلبك تتصاغر الدنيا بين عينيْك ويتصاغر ما دونه سبحانه.
سر أيها النذير في طريقك مردّدًا "الله أكبر" فهي كلمات لا يهتدي تاركها ولا يضلّ قائلها. إنها الكلمة التي رفعها الأوّلون وسيقاتل دونها الآخِرون.
قم طاهرًا وانبذ الرجز فراية "الله أكبر" لا يحملها إلا المتطهّرون ولا يلوّح بها إلا من كان الله في قلبه أكبر من كل شيء. وسر إلى الله ولا تتبع سبُل المشركين فهي رجس. فاهجرها وابرأ من أصحابها.
فالحرب تقتضي المفاصلة التامة فلا يستزلنّك الشيطان أن تُدْهِن فتركن إليهم شيئًا.
قم واجعل الصبر زاد الطريق حتى يمكّن الله لك ويورثك الأرض. وكان وعدا حقا.
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله سرًّا فسخّر الله له نفرًا من الجن يستمعون القرآن فأسلموا. فبلغ صوت دعوته السريّة الخلقَ الذين لا يراهم رغم صدّ بني قومه. فإنما عليه البلاغ وعلى الله إسماع من يشاء.

9- الأقربون

نزلت **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217)}** مؤذنة بوجوب الجهر بالدعوة ووصية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يحفظ للسابقين حقهم في المودة والرحمة وأن يبرأ من المشركين وليتوكّل في أمره كله على العزيز الرحيم الذي أعزهم بالإسلام ورحمهم بالهدى.

قال ابن عباس: "لما نزلت ((وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)) صعد النبي صلّى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر!. يا بني عدي! لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ((تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ))". رواه البخاري
فكبُرت عليهم كلمة الحق رغم يقينهم بصدقه. وقال أبو لهب كلمة خلّدت ذكره ملعونًا إلى قيام الساعة.

10- المفاصلة

ثم نزل قوله تعالى **((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ))** فما ترك صلى الله عليه وسلم مقاما الا ودعا فيه قريش إلى الله وسفّه آلهتها. فاشتدّ أذاها على المسلمين حتى لم يعودوا يتركون لهم شعبا يصلّون فيه وساموا من قدروا عليه منهم سوء العذاب.

مقال (7)

11- لتعودنّ في ملّتنا.

لما صدع رسول الله ﷺ بالدعوة، دمغ بالحق الذي جاء به باطل قريش وصعق به موروثات توارثوها. فعاب آلهتهم وسفّه أحلامهم وشتم أباءهم وضلّلَهم.

وكان من الطبيعي أن تحاول منظومة الجاهلية الدفاع عن نفسها. فأول ما بدأوا به محاولة كشف ظهر النبي ﷺ وكفّ السند الذي كان يحدب عليه ويحميه من بطشهم وهو أبو طالب.

فأتوا إليه يساومونه مرارًا وتكرارًا حتى يخليَ بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان رفض أبي طالب المتكرّر في كل مرة واصراره على حمايته وردّهم مع حفظ مقامهم لأنه لم يكن يريد أن يدخل معهم في صراع غير متكافئ خصوصا أن أخاه أبا لهبٍ كان مع قريش عليه.

لكنهم كانوا في كلّ مرة يصعّدون لهجة الخطاب؛ فهم أبو طالب أن المواجهة لا مفرّ منها وأنّ عليه اختيار أحد الطرفيْن. فأراد تخذيل قريش فقال الشعر يهجو فيه سادتهم وخص بذلك أعيانهم أبو جهل – عمرو بن هشام- والوليد بن المغيرة والمطعم بن عديّ ونظم الشعر يفاخر ببني هاشم وتعهدهم بمنع ابنهم من قريش إلا أبو لهب –لعنه الله-.

ولم يقف سعي قريش عند هذا بل سلّطوا سفهاءهم على النبي ﷺ فيحرّفون اسمه من محمد إلى "مذمّم" وكانوا يتغنّوْن بلعنه وشتمه سرًا وجهرا ويتحاضّون على ذلك. وزادوا خسّة ووضاعة فجروا إلى أزواج بنات رسول الله ﷺ يسعون في تطليقهنّ من أزواجهنّ فأطاعهم ابنا أبي لهب وطلّقا أم كلثوم ورقيّة. وتزوّج عثمان رضي الله عنه رقيّة. فطهّر الله بنات النبي ﷺ من ابنيْ عدوّه أبي لهب.

لكن هذا الأذى لم يرضِ قريشا فتمالؤوا على المسلمين الذين لا ظهر لهم يحميهم فتكفّل كل رأسٍ منهم بفتنة من تحت يده من بني عشيرته. فكان تم تعذيب عثمان من عمه الحكم بن أبي العاص وأشعلوا على الزبير الحصير من أسفل يدخّنون على بالنار وحبسوا مصعب بن عميْر حتى هزُل ويغلّون أبي فكيهة في الأغلال ويلقونه في الصحراء وكذلك فعلوا ببلال ومن معه من العبيد وأوثقوا طلحة. فكان أوّل من قُتل في سبيل سمية بنت الخياط قتلها أبو جهل.

ولم يستكن المسلمون لواقعهم مع استضعافهم والأمر بالصبر لكنهم فعلوا المتاح فكان أبو بكر يشتري العبيد ويعتقهم لوجه الله. وسلّ الزبير سيفه حين بلغه أن النبي ﷺ قد قُتِل.

ولمـا لم يجرؤ زعمـاء قريش على بني هـاشـــم أوّل مرة، مـالوا إلى دعوة النبي ﷺ يعيبونـهـا بعقولـهم القاصـــرة. فكانوا يطلبون منه المعجزات ظنًّا منهم أن ذلك محال لا يطيقه بشـــر. فكان أوّل ما طلبوا أن يكون الصفا جبلًا من ذهب. فنزل الوحي بــ" وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً". وكانوا إذا سمعوا القرآن جهرًا منه لغوا فيه ثم أنكروه جملة وتفصيلا بأن قالوا أن الذي يعلّمه بشر وهو ابن الحضرمي.

لكنّ ذلك لم يُطفِئ نور الله وكـان المســلمون في ازديـاد؛ فبلغت قريش حدّهـا وأجمعت أمرها على قتل النبي ﷺ بعدما رأوا أن أبا طالب مازال على دينهم وليس جادًا في نصــرته. فعرضـوا عليه أن يسـلمهم رســول الله ﷺ لقتله ويأخذ بدله أشــرف أبنائهم فرفض أبو طـالب ذلك وتيقّن أنهم سـيحاولون قتله غيلة فأمر فتية بني هاشـــم فنزلوا بصـــفائحهم المشـــحوذة يبحثون عنه ﷺ ثم ذهبوا به للكعبة فصـــلى وهم يحرسونه أمام سادة قريش نصرتهم له وأنهم جادّون في ذلك.

12- إنهم لا يكذّبونك

كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخفي بأصحابه بين شعب الجبال يصلّي بهم ويأمرهم بذلك فكانوا يصلّون جماعاتٍ صغيرة لكن أذى كفار قريش لحقهم إلى هناك. فكانوا ابتداءً يتتبّعون رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته فيسمعونه يجهر بالقرآن فيلغون فيه ويسخرون منه.

فكانوا مع القرآن على أحوال شتى فإذا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ شيئًا منه في اجتماعاتهم ومواسمهم تفرّقوا عنه وأبوا السماع حتى لا يغري ذلك سفهاءهم وضعفاءهم بالمثل. وكانوا يلغَوْن فيه ويسبونه إذا سمعوه في الصلاة ليفسدوا على المسلم صلاته.

حتى نزلت آيات **(ولا تجاهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا).** فكانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وسطًا يسمعها القريب ولا يبلغ صداها البعيد. وذلك من تدبير الله إذ لو شاء لكان الأمر بأن تكون القراءة سرًا لكن هذا منافٍ للحكمة من القرآن **(لعلّهم يتدبّرون) (لعلّهم يتّقون) (لعلّهم يتذكّرون).**

فسماعهم للقرآن ولا شك حكمة وصدع رسول الله صلى الله عليه وسلم به حكمة أخرى. فكانوا رغم لهْوِهِم بألسنتهم يقَر في قلوبهم شيء منه ويشتدّ عليهم القول الرباني لأنهم يعلمون أنه ليس قول بشر فقد كانوا عربًا أقحاحا يفهمون القرآن ويسمعونه غضا طريا كما أُنزل. ولأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم صادق لا يكذب فكان كفرهم عنادًا وحسدًا.

ويلخص كل هذا قول الوليد بن المغيرة: "والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة –رونقًا-، وإنّه لمثمر أعلاه مُغدِق أسفله، وإنّه ليعلو ولا يُعلى وليحطم ما تحته". فكانوا يتلذذون سرا بسماعه ليلا في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهم أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق.

13- أرض الله واسعة

ومع حرص النبي صلى الله عليه وسلم على دعوة قريش لكن ذلك لم يشغله عن تعليم أصحابه وتوطيد عرى الإيمان في نفوسهم. فكان صلى الله عليه وسلم يقرن الرجل الموسر برجل معسرٍ يعلّمه القرآن ويقاسمه مأكله ومشربه ثم اتّخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ابن أبي الأرقم مركزًا لدعوته وتعليم أصحابه أمر دينهم حماية لهذه الثلة المؤمنة التي لم يشتدّ عودها بعد. لكن أذى قريش كان شديدا عليهم فكان لابدّ من إجراءٍ قاسٍ؛ فسمح

لمن أراد بالهجرة إلى الحبشة أرض النجاشي الملك العادل. وذلك من رحمته بهم ومن حكمته صلى الله عليه وسلم فلم يكن ليسلّم ثمرة دعوته للنظام الجاهلي ليُهلكوها.

فخرج في السنة الخامسة للبعثة أحد عشر رجلا وأربع نساءٍ حتى وصلوا أرض الحبشة فأقاموا فيها وهم: عثمان وزوجه رقية والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وعثمان بن مظعون وأبو سلمة وزجه أم سلمة ومصعب بن عمير و أبو حذيفة بن عتبة وزوجه سهلة وأبو سبرة وزوجه أم كلثوم بنت سهيل وسهيل بن بيضاء وعامر بن ربيعة ومعه زوجه ليلى بنت أبي حثمة.

قالت ليلى في حديثها عن هجرتها وزوجها: ذهب عامر في بعض حاجتنا إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه وكنا نلقى منه البلاء والشدة علينا، فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله، فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجًا، فقال: صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.

فكان خروج المهاجرين سببا في تحريك قلب رجلٍ بأمّةٍ. فهي المحن التي تجلب المنح.

مقال (9)

14- الهجرة الثانية.

بعد خروج أصحابه لم يكفّ النبي صلى الله عليه وسلم عن الدعوة فخرج ذات يوم من رمضان على جمع غفير لقريش فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ موضع السجود فسجد وسجد لسجوده كل من كان يسمع ومن لم يسجد وضع التراب على جبهته. لم يستطع القرشيون المكابرة: إنه كلام ربّ العالمين يقرأه رسول الله تلك هي الحقيقة التي لم يملكوا إنكارها أو تلك هي الحقيقة التي أنكروها بجوارحهم وصدّقتها قلوبهم.

أُرغِمت أنوف الكفّار ومُرِّغت في التراب رُغما عنهم وفشا الخبر في الجزيرة فشنّ عليه الكفار حربًا إعلامية كما هي عادة فسطاط الكفر فأشاعوا أنهم سجدوا لما أثنى محمد على آلهتهم. ويا لها من كذبة فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسجد بفطرته لآلهتهم في الجاهلية فهل يثني عليها لما جاءه الحق المبين من ربّ العالمين.

شاع الخبر وتناقله الناس بسمينه وضعيفه دون تحرٍّ للصدق؛ حتى بلغ مسامع المسلمين في الحبشة أن قريش قد أسلمت فعادوا بعد أن مكثوا فيها أشهر قليلة. فلما وصلوا إلى مكة عرفوا أن الخبر كذبة. فدخل بعضهم خُفية إلى مكة ودخل أغلبهم في جوار كبار قريش كأبي سلمة الذي دخل في جوار أبي طالب وكان ابن أخته، وعثمان بن مظعون الذي دخل في جوار الوليد بن المغيرة ثم ردّ عليه جواره لحيائه من أمنه بجوار مشرك ومن خوف أصحابه.

لما ظفر القرشيون بالمسلمين مرة أخرى أمعنوا في تعذيبهم حتى أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاودة الهجرة فهاجر أغلب المسلمين في ذلك الوقت؛ فكانت تعدادهم ثلاثًا وثمانين رجلًا وثمانية عشرة امرأة وصلوا كلهم إلا خالد بن حزام توفي في الطريق من نهشة حية وكان ابن عم أم المؤمنين خديجة.

لكن قريش في هذه المرة لم تغفل عنهم فأرسلت في إثرهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بالهدايا للنجاشي وبطارقته لإغراء صدورهم على المسلمين حتى يعينوهم على إقناع النجاشي بإعادتهم معهم إلى مكة. فالنظام الجاهلي يدرك أن القضية لم تعد قضية سيادة على قريش ولا على مكة فحسب بل أصبحت قضية وجودية فالأرض لا تسع الإسلام وشركهم. وهو موقن أن هروب المسلمين ليس إلا استراحة محارب.

أبى النجاشي الانصياع لتواطئ بطارقته ورسل قريش حتى يسمع من المسلمين فتقدّم فيهم جعفر بن أبي طالب خطيبًا (*) فوصف الجاهلية وما كانوا عليه من فساد دين ودنيا ثم وصف الإسلام وما آل إليه أمرهم من صلاح دينٍ ودنيا بذلك فأخزى الله رسل قريش وكرّر ابن العاص المكيدة ثانية فأراد الإيقاع بهم بإلزامهم بالكلام في عيسى عليه السلام فقالوا: "نشهد

أنـه عبـد الله ورسـوله وكلمتـه التـي ألقهـا إلـى مـريم" فثـار البطارقـة الـذين كـانوا يعبـدون المسـيح لكن النجاشي صدّقهم وأمّنهم في أرضه رغم ما سيكون وراء ذلك من متاعب.

*** الحديث في مسند أحمد**

مقال (10)

15- هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين.

بعد هجرة ثمانين من أصحابه إلى الحبشة وفشل قريش في ردّهم بقي النبي صلى الله عليه وسلم في بضع وثلاثين رجلًا في مكة يستخفون من الناس في دار الأرقم بن أبي الأرقم وبلغ أبو طالب من العمر عتيًّا وبدأ أذى المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم يشتدّ يومًا بعد يوم

فأعقب العسر يسرٌ؛ ففي السنة السادسة من البعثة أسلم سيد فتيان قريش قاطبة: حمزة بن عبد المطّلب؛ عمه وأخوه من الرضاعة.

كان حمزة أشد فرسان شكيمة وأعزّهم نفسًا قد بلغه **(*)** شتم أبي جهل -لعنه الله- للنبي صلى الله عليه وسلم على رؤوس الأشهاد ولم يكن يفعلها من قبل فردّ عليه الإهانة بأبلغ منها ثم شرح الله صدره للإسلام. فكان اسلامه عصمة لرسول الله من سفهاء قريش فمن يجترئ عليه بعد الآن وحمزة يمنعه ويدفع عنه أذاهم؟.

ورغم ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز دينه برجلٍ منيع مرهوب الجانب وكان ذلك من دعائه. ويأبى الله إلا أن يتمّ نعمته فلا يلبث أن يكمل عمر تعداد الأربعين رجلًا مسلمًا في دار الأرقم فكبّروا تكبيرة سُمعت في أرجاء مكة. إنه عمر !

منع الله بحمزة رسول الله صلى الله عليه ومنع بعمر أصحابه. حتى قال ابن مسعود **"مازلنا أعزة منذ أسلم عمر"** وحسبُك أن تسمع قوله **"(والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر).** فكان إسلامه فتحًا ويومًا من أيام الله.

لم يهب عمر قريش ولا صناديدها وجهر بإسلامه فضربه أهل مكة وضربهم كأنه قد أغاظهم أنه قد ألقى سوطه الذي كان يعذّب به المؤمنين ليلتقط الترس يذبّ عنهم أذى الكفار.

كانت السنة الإلهية تعمل عملها: من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس. فلما لم يركن رسول الله صلى الله عليه سلم لكفار قريش ولم يدع الحق الذي معه أو حتى شيئًا منه أيّده الله بأحسن فتية قريش وأشدّهم عزمًا.

(*) الرواية أخرجها الطبري وفيها انقطاع في السند لكن لها ما يدعمها ونذكرها استئناسًا.

مقال (11)

16- ولنبلونكم

فشلت قريش في ثنيْ أبي طالب عن حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم زادها الله ذلا بإسلام حمزة وعمر وكانوا يخشون الدخول في قتال مع بني هاشم لأن المجتمع الجاهلي كانت تحكمه نعرات عشائرية تحرّك الحمية التي إن اشتعلت فلن تطفأ حتى تأتي على قريش بأكملها. فرغم أن بني هاشم لم يسلموا كلّهم إلا أنهم يأنفون أن يمسّ أحد ابنهم بأذى وتعاهدوا على حمايته ولو كان ذلك بالسيف. وكذلك منع العاص بن وائل السهمي الناس من أذية عمر لأنه كان حليف بني زهرة قوم عمر. وأيضا سرى جوار الوليد بن المغيرة لعثمان بن مظعون على كل سادة قريش.

وأمام هذه الوضعية العويصة تفتّقت عقولهم على فكرة حصار بني هاشم فأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوهم، ولا يخالطوهم ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا في بيوتهم، وكتبوا في ذلك صحيفة. وكانوا يمنعون الطعام من الوصول إليهم فكانوا يشترونه في طريقه إلى مكة ويغالون عليهم في الأسعار ويمنعونهم الأسواق.

فانحاز بنو هاشم إلى شِعب أبي طالب مسلمهم وكافرهم وأبوْا الخضوع لقريش إلا ما كان من أبي لهب –لعنه الله- فقد انحاز إلى قريش.

واشتدّ الحصار على القوم حتى كان بكاء الصغار من الجوع يُسمع من بعيدٍ. واضطرّوا لأكل أوراق الشجر. **قال سعد بن أبي وقاص: "خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتُها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها –فتَّتَها- وسففتها بالماء –خلطها بالماء- ، فقويت بها ثلاثًا –أي ثلاثة أيام-". فتأمّل !.**

ورغم الحصار الخانق وحرص أبي جهل أن لا يصل إليهم شيئٌ، فقد كانت بعض رجال قريش يصلون بني هاشم خُفيَة وأشهرهم: حكيم بن حزام وعمرو بن هشام العامري. حتى ظفر أبو جهل بحكيم يرسل الطعام على بعير إلى عمّته خديجة فحاول منعه فتدخّل أبو البختري -وكان شريفا في قومه- لكن أبا جهل أصرّ فضربه الأخير على رأسه فشجّه وضربه ضربًا مبرحا. وبدأ الانقسام في قريش جرّاء هذا الاجراء الذي لم يكن من خُلُق العرب من الضيافة وحسن الجوار والشهامة لكن الشرك دنيٌّ يردي أصحابه.

مضى على الحصار ثلاث سنواتٍ ذاق خلالها أهل الشعب الأمريْن ولِد خلالها لعم النبي صلى الله عليه وسلم غلام أسماه عبد الله. وبعد العسر يأتي اليسر فقد تمالأ رجال من قريش

علـى نقـض الصـحيفة وهـم: هشـام بـن عمـرو وحكـيم بـن حـزام والمطعـم بـن عـدي وأبـو البختـري فأرغموا أنف أبي جهل وأبي لهب الذين توليا كِبْر الصحيفة.

ونُقِضَـت الصـحيفة الجـائرة ليخـرج بنـو هاشـم مـن الشِـعب سـنة عشـرة بعـد البعثـة. لكـن الحصـار كـان قـد بلـغ بـأبي طالـب أقصـى الجهـد فمـرض ومـات بعـد الخـروج بأشـهر. ثـم ازدادت المحـن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت خديجة. فحزن عليهم حزنًا شديدًا.